أحاديث إصلاح القلوب

(٣١)

علاج الشهوة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فروى الإمام أحمد في مسنده عن أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: «**ادْنُهْ**»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا. قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**» قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**». قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ قَالَ: لَا. وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**». قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**». قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**». قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ**

وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ[١].

ورواه الطَّبرانِيُّ وزاد: «**فَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَأَحِبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**»[٢].

إنَّ هدي نبيِّنا الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أعظم الهدي وأكمله، وأسدُّه وأقومه، وأنفعه للعباد في كلِّ أمرٍ وفي كلِّ مجالٍ وفي كلِّ باب، وما أحوج النَّاس إلى عودةٍ صادقة إلى هديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإلى معِين سُنَّته العذب للنَّهل من هداياته النَّافعة وإرشاداته العظيمة ولطفه وحكمته.

وهذا حديثٍ عظيم في معالجة آفةٍ خطيرة وبليَّةٍ عظيمة وجرمٍ وخيم، قد يتعرَّض للافتتان به والوقوع في حمأته كثيرٌ من الشَّباب، ولاسيَّما إذا كثرت الفتن وتنوَّعت مغريات الفساد.

لنتأمَّل هذه الحادثة العجيبة والقصَّة المؤثِّرة؛ شابٌّ يأتي إلى مجلس النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بحضور أصحابه الكرام، ويطلب من النَّبيِّ ﷺ أن يأذن له بالزِّنا وهو يعلم خطورة الأمر، لكنَّ نفسه فيها شهوة ملتهبةٌ، ثائرةٌ متأجِّجة، فقالها صراحةً: «**يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا**»، فغضب الصَّحب الكرام وزجروه ونهروه، وأسكتوه، فقال لهم النَّبِيُّ ﷺ «**ذَرُوهُ**»، وطلب من الفتى أن

---

(١) رواه أحمد (٢٢٢١١)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣٧٠).

(٢) رواه الطَّبرانِيُّ في مسند الشَّاميِّين (١٠٦٦).

يدنو منه، وتأمَّل رفق النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما أعظمه، وحلمه وأناته ولطفه ورحمته وحسن نصحه صلوات الله وسلامه عليه، فدنا الفتى وجلس بين يدي خير معلِّم ﷺ.

ولنتأمَّل -أيضًا- هذا الشَّابُّ جاء وقد تأجَّجت في قلبه الشَّهوة وثارت ثورة شديدة واشتعلت في صدره وأصبحت هي المسيطرة عليه، فعالجه النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معالجةً حكيمة لطيفة رفيقة استخرج بها الدَّاء الَّذِي أصيبت به نفسه، فدعاه النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى أن يستثير من كامن نفسه -مكان هذه الشَّهوةِ الثَّائرةِ- الغيرةَ العظيمة الَّتِي جعلها الله في قلوب أهل الإيمان على حرمات الله، فبدل أن تكون الشَّهوة هي الثَّائرة المسيطرة على قلبه أراد النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن تكون الغيرة الكامنة على المحارم هي المسيطرة، وكلُّ أحدٍ بلا ريب في قلبه غيْرة على أُمِّه، وعلى ابنته، وعلى أخته، وعلى عمَّته، وعلى خالته؛ لا يرضى أن يدنَّس شرفه أو أن تُنتهك حرمته أو أن تلوَّث كرامته، يأبى ذلك أتمَّ إباء ولا يرضاه، فكم هو جميل إذًا تحريك هذا الدَّواء النَّافع للقلوب واستثارة هذا العلاج الكامن لمداوة هذه الشَّهوة المُحَرَّمة إذا ثارت في النَّفس.

وما أحوج الشَّاب في خضمِّ الفتن العظيمة الَّتِي تعصِف وتجرِف وتحرِف إذا ابتلي بشيء من ذلك؛ أن يستثير في نفسه هذه الغيرة العظيمة، بأن

يتذكَّر أنَّ له أمًّا أو بنتًا أو أختًا أو عمَّةً أو خالة ولا يرضى أن تدنَّس كرامته أو ينتهك عرضه، وكلَّما خَطَتْ قدمه إلى شيء من هذه الآثام زمَّها بهذا الزِّمام، واستثار فيها هذه الغيرة؛ فإنَّها بإذن الله صِمَامُ أمان وواقٍ عظيم من الولوج والانغماس في هذه الرَّذيلة، وليس هذا الأمر في الزِّنا وحده، بل وفي كلِّ مقدِّماته وأسبابه؛ فهذه قاعدة جامعة تتذكَّر دائمًا وأبدًا: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**». مثلًا: لو أنَّ شابًّا حدَّثته نفسه أن يتخاطب مع فتاة عبر جوَّال أو غيره مخاطبةً آثمة حتَّى ولو لم يبلغ حدَّ الزِّنا؛ فليتذكَّر هذا الكلام العظيم الجامع: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**». فإنَّ كلَّ إنسان شريفٍ كريم النَّفس سليم الطَّبع لا يرضى شيئًا من ذلك، لا يرضى أن يكون لابنته أو أخته أو عمَّته أو خالته شيء من ذلك أن يستدرجها شابٌّ أو يستثير فيها عاطفةً آثمة.

ثمَّ أولئك الآثمون الَّذِين استغلوا هذه الأجهزة الحديثة وأخذوا من خلالها يورِّطون بعض الفتيات ويستدرجون بعض البنات ويبتزُّون بعض الغافلات عبر خطواتٍ وخطوات؛ ألا يتذكَّر هؤلاء الآثمون هذا الحديث العظيم عن النَّبِيِّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ!!

ولنتأمَّل أثر هذا الدَّواء وعظم نفع هذا العلاج لقلب ذلك الشَّابِّ وهو

يستمع إلى النَّبِيِّ ﷺ، وفي كلِّ مرَّة يقول للنَّبِيِّ ﷺ: «**لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ**»؛ يقسم بالله العظيم بأنَّه لا يحبُّ ذلك، لا لأُمِّه، ولا لأخته، ولا لابنته، ولا لعمَّته، ولا لخالته؛ وهذا لسان صاحب كلِّ نفس أبيَّة، إذا قيل له ذلك قال: لا والله لا أرضى ذلك، فإن كان لا يرضى ذلك لأمٍّ أو بنت أو أختٍ أو عمَّة أو خالة؛ فليتذكَّر أنَّ النَّاس كلَّهم مثله لا أحدٌ منهم يرضى لشرفه أن يُدَنَّس أو لعرضه أن يُنتهك، والمرء المسلم يحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ لذلك الشَّابِّ كما في رواية للحديث: «**فَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَأَحِبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**»(١).

وهذا نظير قول النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٢). وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**»(٣).

وهذا يتناول كفَّ الأذى والمكروه عن النَّاس، وأن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشَّرِّ ولم يذكره في الحديث؛ لأنَّ حبَّ الشَّيء مستلزم

---

(١) رواه الطَّبرانِيُّ في مسند الشَّاميِّين (١٠٦٦).

(٢) رواه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٣) رواه مسلم (١٨٤٤).

بغض نقيضه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فينبغي للمؤمن أنْ يُحِبَّ للمؤمنينَ ما يُحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لِنفسه، فإنْ رأى في أخيه المسلم نقصًا في دينه اجتهدَ في إصلاحه. قال بعضُ الصَّالحين مِن السَّلف: أهلُ المحبَّة لله نظروا بنور الله، وعطَفُوا على أهلِ معاصي الله، مَقَتُوا أعمالهم، وعطفوا عليهم ليزيلوهُم بالمواعظ عن فِعالهم، وأشفقوا على أبدانِهم من النَّار»[(١)].

ثمَّ لنتأمَّل مع كمال هذا الإحسان وجمال هذا النُّصح والبيان توَّجَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذلك بتلك الدَّعوة العظيمة المباركة الميمونة؛ فوضع يده الشَّريفة ﷺ على صدر ذلك الشَّاب وقال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»؛ دعا له بهذه الدَّعوات الثَّلاثة العظيمة: غفرانِ الذَّنب وطهارة القلب وتحصين الفرج، وكم تمسُّ حاجة الشَّابِّ إلى هذه الدَّعوات وتكرارها ولاسيما إذا كثرت أسباب الفتن ومغرياتها، فكلما حدَّثته نفسه بشيء من ذلك لجأ إلى الله داعيًا بهذه الدَّعوات بصدق وإخلاص، كما قال تعالى عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السُّوء، وكذلك كلُّ مخلص، كما يدلُّ عليه عموم التَّعليل.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٠٨).

وليتذكَّر أنَّ فلاحه في الدُّنيا والآخرة معلَّق بحفظ فرجه، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:١-٧].

وهذا يتضمَّن ثلاثة أمور: أنَّ مَن لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنَّه من الملومين، وأنَّه من العادين. ففاته الفلاح، واستحقَّ اسم العدوان، ووقع في اللَّوم. فمقاساةُ ألم الشَّهوة ومعاناتُها أيسر له من بعض ذلك.

هذا وقد تنوَّعت الهدايات المباركة والتَّوجيهات المسدَّدة المأثورة عن النَّبيِّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في علاج هذا الدَّاء وكبح هذه الشَّهوة المُحَرَّمة، وأعظم ما جاء في ذلك كلمته العظيمة البليغة الَّتِي قالها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في خطبته الجامعة يوم خسفت الشَّمس؛ فإنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خطب النَّاس على إثر صلاته ذلك اليوم خطبةً عظيمةً جامعة، وممَّا قال فيها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ؛ وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**». متَّفق عليه من حديث أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا[1].

وهذا أعظم بابٍ لإغلاق كلِّ بلاء وصدِّ كلِّ فتنة؛ أن يتذكَّر المرء أنَّ ربَّ

---

(١) رواه البخاريُّ (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

العالمين يراه، وأنَّه جَلَّوَعَلَا مطَّلع عليه، وأنَّه سبحانه يغار أن يزني عبده وأن تزني أمته. فيحذر سخط الله وعقابه، ويتجنَّب كلَّ أمرٍ يجرُّه إلى ما يسخط الله ويغضبه سبحانه.

والغيرة على محارم الله لها شأن عظيم في صلاح القلب، فهي كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تُخرج ما فيه من الخَبَث والصِّفات المذمومة، كما يُخرج الكِيرُ خَبَث الذَّهب والفضَّة والحديد. وأشرف النَّاس وأعلاهم همَّةً أشدُّهم غيرة على نفسه، وخاصَّته، وعموم النَّاس.

ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ أغيرَ الخلق على الأُمَّة، والله سبحانه أشدُّ غيرةً منه، كما ثبت في الصَّحيح عنه ﷺ أنَّه قال: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»(١)»(٢).

هذا وإنَّ من الخير العظيم للمرء أن يقف مع هدايات السُّنَّة ودلائلها المباركات ليداوي بها أدواء نفسه وأسقام قلبه وما قد يقع فيه من انحراف وزلل، ليُهدى إلى أقوم السُّبل ويوقى من غوائل النَّفس وكوامن مكائدها.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يهدينا أجمعين إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يوفِّقنا للزُّوم سُنَّة النَّبِيِّ الكريم وأن يجنِّبنا منكرات الأخلاق والأهواء والأعمال

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٢) انظر: الدَّاء والدَّواء لابن القيِّم (ص٦٦ - ٦٧).

والأدواء، إنَّه سميع قريب مجيب، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.